# أثر البعد الروحي في فتح مدينة وهران سنة 1792 م

**الأستاذ بن العيفاوي علي**
**كلية الآداب والفنون**
**جامعة عبد الحميد بن باديس**
**مستغانم**

اشتهر باي معسكر عاصمة بايلك الغرب الجزائري محمد بن عثمان الكبير بجديته وصرامته وحبه للعلم والعلماء وقد ذاع صيته حتى بين الكتاب والمؤرخين والرحالة الأوربيين في بعده الروحي والإنساني وورعه وتقواه وعقيدته وأخلاقه الحميدة ، حيث شهدوا له بحسن معاملة العبيد الأوربيين الذين كانوا يمارسون بقصره مختلف الأعمال، فقد ذكره عالم النبات دي فونتان Désfontaines [1]، بأنه كان كريما معهم ويزودهم بما يحتاجونه من أغذية و قد جعل لهم راتبا مقابل ما يؤدونه من أعمال لديه، ويعاملهم برأفة تنم على ورع وتقوى كبيرين لدى هذا الباي، إضافة إلى تواضعه الكبير مما جعله يتمتع بشعبية كبيرة بين سكان مدينة معسكر .

والواقع ان الباي محمد بن عثمان كان يتميز بشخصية قوية وصرامة كبيرة، متمرسا وخبيرا بالحروب، أبدى شجاعة كبيرة أثبتها من خلال قيادته للجيش عند ما قام الاسبان بحملتهم العسكرية على مدينة الجزائر سنة 1775 بقيادة اوريلي (Oreilly) الايرلندي، حيث ذكره العقيد استرهازي[2]، بأنه كان وراء انتصار الجيش الجزائري على الاسبان من خلال حنكته العسكرية على ارض المعركة وكان على راس جيش الخيالة الذي كان له شرف هذا النصر الكبير، على الرغم

---

[1]-Peysonnel et Désfontaines, **Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger,** T2, librairie de Gide, Paris 1838. p184.

[2] -Walsin Esterhazy, **De la domination Turque dans l'ancienne Régences d'Alger**, librairie De Charles Gosselin, Paris 1840, p 259

من امتعاض داي الجزائر من هذا الانتصار ،لان ذلك سيساهم في تزايد شعبية الباي محمد بن عثمان بين السكان مما يجعله يطمع و يسعى للوصول الى منصب الداي باعتباره خليفته في الحكم وقد تجلى عدم رضى الداي على هذا النصر انه لم يجزل العطاء لجيش الخيالة ،مما أجبر عدد كبير منهم على الفرار إلى تونس.

لكن الباي محمد بن عثمان سارع اليهم واجزل لهم العطاء على شكل مكافاءات مالية جعلتهم يعودون معه إلى الجزائر.

وعلى الرغم من انشغالاته العديدة ،إلا أن ذلك لم يثنيه على إبداء عناية خاصة و اهتمام كبير وجلي بالعلم والعلماء من خلال بناء المدارس والمعاهد والزوايا و تكريم العلماء وحفظة القران الكريم والمدرسين بالمعاهد التي أسسها بنفسه بمدينة معسكر.....الخ، ونظرا لمكانة هؤلاء العلماء و رجالات الزوايا لدى عامة السكان وتأثيرهم في اتخاذ القرارات كان لزاما على الباي محمد بن عثمان الكبير أن يدرج شيوخ الزوايا والعلماء ضمن خطته وجيوشه العسكرية لفتح مدينة وهران التي كانت أبرز اهتماماته، متبركا بشهر رمضان الكريم ومتيمنا بالفتوحات الإسلامية للنبي عليه الصلاة والسلام في هذا الشهر الكريم حيث كانت معركة بدر في 17 رمضان في السنة 2هـ وفتح مكة في 20رمضان في السنة 8هـ، وقد تقرب الباي محمد بن عثمان الكبير من المرابطين الذين كان يقدر عددهم بأكثر من خمسمائة شخص[1]، حيث أغدق وتكرم عليهم بأموال طائلة مما جعلهم يعدوه بالمؤازرة والنصرة والتأييد .

وكان خروج الباي من مدينة معسكر في الثالث من رمضان سنة 1206 للهجرة مارا بمدينة سيق التي مكث فيها عدة أيام ثم مدينة تليلات التي تبعد عن وهران مسيرة ضحوة مع العلم أن الباي كان قد أقام وليمة حضرها عدد كبير من الخواص والعوام وأرسل إلى المناطق البعيدة فأوتي بجميع أعلام أوليائها الصالحين كعلم سيدي عبد الرحمان الثعالبي، وأبي مدين شعيب التلمساني ، وأحمد

1 - أحمد بن سحنون الراشدي، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، تحقيق المهدي البوعبدلي ،نشر وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، دار البعث، قسنطينة، 1973، ص 276 .

بن يوسف الملياني، ومحمد بن عودة ليحضر بها الجهاد تبركا بهم [1] وقد أثر هذا الموقف في أهالي مدينة معسكر وضواحيها الذين هبوا بعفوية كبيرة لمساعدة الباي في حربه ضد الاسبان المحتلين لمدينة وهران.

وبدأت المواجهات في التاسع والعشرين من شهر رمضان سنة 1206للهجرة واشتد القتال بين جيوش الباي محمد بن عثمان الكبير والجيوش الاسبانية حيث بدأت حصون وأبراج وقلاع وهران تتهاوى وتسقط الواحدة تلوى الأخرى مثل حصن مرجاجو المنيع وبرج العيون واستمر القتال لفترة طويلة من النهار، وكان الباي حريصا على تنظيم صفوف الجيوش بتشكيل ثلاثة أرتال، من اجل إحراز تقدم اكبر كي يتفادى مواجهة الجيش الاسباني ليلا ، وكانت الحصيلة الأولية أكثر من 229 جندي اسباني سقطوا قتلى في ساحة المعركة وبدأ الجنود الأسبان في الفرار وكان عددهم 1526رجلا، موزعين على عدة مراكز وسارع الأسبان الى طلب المدد من اسبانيا التي أمدتهم ب7000جندي، بينما لم يستجيب داي الجزائر في تقديم المدد والعون إلى الباي محمد بن عثمان ،خوفا من طموحاته الكبيرة وحصوله على شهرة واسعة بين السكان [2] ، خاصة اذا كان الأمر يتعلق بمدينة كبيرة وهامة مثل وهران يسعى الأوجاق إلى الاستيلاء عليها و إحكام سيطرتهم، فسارع الباي إلى نقل مدافعه إلى البرج الأحمر لتضييق الخناق عليهم مما حدا بالاسبان إلى طلب الهدنة التي رفضها الباي عدة مرات، فالأسبان لم يكن باستطاعتهم رد هجوم باي معسكر نظرا للحالة السيئة والأوضاع المتدهورة التي كانوا عليها ،حيث عانوا من نقص حاد في المؤونة لجنودهم من جهة، ومعنويات جيشهم كانت منحطة، بسبب طول مدة الحصار من جهة أخرى، إضافة إلى ارتفاع تكاليف هذه الحرب على خزينة اسبانيا[3].

---

[1] - المصدر نفسه، ص 293 .

[2] -H.D .Degrammont, **Hitoire d'Alger sous la Domination Turque**, édition Ernest le Roux, Paris 1887, p 324.

[3] - أحمد توفيق المدني ، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492-1792** ، طبعة 2 ،ش.و.ن.ت الجزائر ،1976 .ص 364 .

لكن تدخل داي الجزائر **حسن باشا** أدى بالباي **محمد بن عثمان الكبير** إلى الموافقة على الهدنة مع الإسبان على مضض ثم الانسحاب من المدينة حيث كان برغب في إلحاق الهزيمة بالاسبان لكي لا يفكروا في الاعتداء مرة أخرى .

وقد ساهمت تكبيرات وتهليلات شيوخ الزوايا والمرابطين في تحفيز جيوش الباي في مواصلة الجهاد وتشجيعم على طلب الاستشهاد أو النصر وأمام هذا الوضع رضخ الاسبان إلى الصلح مع الباي **محمد بن** عثمان وفق شروطه وتوقيع اتفاقية الانسحاب من اجل حفظ ماء الوجه ، وذلك بحضور حسن باشا داي الجزائر [1] في مطلع شهر محرم 1207 للهجرة والتي تضمنت عدة بنود أبرزها :

1. إنسحاب الاسبان من مدينة وهران والمناطق الخاضعة لهم ومن جميع الحصون والقلاع دون شروط[2].

2. ترك الاسبان كل الاشياء التي كانت موجودة في المدينة خلال حكم الباي مصطفي بوشلاغم وأن لا يحدثوا عليها أي تغيير، كما عليهم إرجاع جميع القنابل والمدافع والذخيرة التي غنمها الاسبان عند احتلالهم لمدينة وهران والمرسى الكبير

3. يدفع الاسبان لدار السلطان كل سنة مبلغ اثنى عشر ألف سلطاني [120ألف فرنك].

4. يدفع الاسبان 55 ريال لبيت المال 40منها عن كل سفينة إسبانية ترسو بميناء وهران والباقي لقائد المرسى.

5. لا يسمح لبقية الدول الاروبية بممارسة التجارة بمدينة وهران دون إذن مسبق من باي وهران محمد بن عثمان الكبير.

6. تحمل سفينة إسبانية بصفة رسمية إلى إسطنبول مفتاحيين ذهبيين رمزاستسلام وهران والمرسى الكبير مع جرتيين من ماء عيون وهران للخليفة السلطان العثماني كبشرى بالفتح وتأكيده للرابطة مع دولة الجزائر .

---

[1] - يحي بوعزيز ،**المراسلات الجزائرية الاسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد ،1780-1798 .د.م.ج الجزائر1993، ص148 .**

- ان الانسحاب الاسباني من مدينة وهران يعتبر بمثابة السقوط الكبير لاسبانيا في بلاد الجزائر ،انظر:

[2] -Léon Gilbert, **l'Algérie ancienne et moderne**, Paris 1853,p 241 .

7. للأسبان الحق في تدمير وتحطيم كل البناءات التي كانت سنة 1732.

8. يسمح للأسبان الراغبين في مغادرة مدينة وهران بالرحيل الى مدينة قرطاجنة .

9. حصول اسبانيا على مركز تجاري في بلدة جامع الغزوات .

10. أن تشتري اسبانيا من بلاد الجزائر 3000 كيلة من القمح سنويا .

والواقع أن المؤرخ ليون فاي [1] ،أضاف بعض البنود السرية التي لم ترد في الاتفاقية منها :

1- لا يحق لباي وهران تحديد كمية القمح المصدرة الى اسبانيا .

2- لا يحق رفع سعر القمح عن الأسعار المحلية الموجودة في وهران.

3- كل مركب اسباني يدخل إلى ميناء وهران يدفع 55 ريالا منها 40 ريلا لبيت المال و15 ريالا إلى قائد المرسى .

وقد ذكر المؤرخ هنري قارو[2] أن الأسبان اتفقوا مع باي وهران على الانسحاب مقابل حصولهم على امتيازات اقتصادية في بايلك الغرب ،مثلما كان عليه حال فرنسا في الشرق الجزائري، وتم الاتفاق على ذلك في وقت سابق بتاريخ 14جوان 1786، وكان قنصل فرنسا السيد دو كارسي وسيطا بين الطرفين .

ودخل الباي بن عثمان الكبير مدينة وهران منتصرا على الاسبان يوم 02/24/ 1792، وتطرق أبو راس الناصري الى أن الباي كان يعادي الاسبان بالحرب، ويطرقهم بالجيش، ويقاتلهم ويكافحهم باستماتة كبيرة [3]، وبعد دلك شرع في تشييد مسجد على الواجهة البحرية سنة 1792 م من ماله الخاص لا زال إلى اليوم يحمل اسمه واستعاد ت المدينة أمنها واستقرارها مما جعل الحياة الاقتصادية

---

[1] -Léon Henri Fey, **Histoire d'Oran avant, pendant et après la domination Espagnole, Paris 1858, p 259.**

[2]- Henri Garrot, Histoire **générale de l'Algérie, imprimerie P.Crescenze, Alger 1910, p 582.**

[3] 2- محمد أبو راس الناصري، **القصص المغرب والخبر المعرب عن حال المغرب بما وقع في الأندلس وثغور المغرب** ،مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائر تحت رقم 3182ص 131 .

والحركة التجارية تزدهر بها مع العلم أن الباي محمد بن عثمان الكبير قد شجع أصحاب الحرف والمهن من الاسبان وغيرهم على المكوث بالمدينة وممارسة أعمالهم بكل حرية مع إعلان عفو شامل عنهم و تقديم تحفيزات لهم من اجل إعادة اعمار المدينة بعد الدمار الذي شهدته اثناء المواجهة العسكرية بين الطرفين الجزائري والاسباني ولم تمض مدة وجيزة حتى أصبحت وهران مدينة غنية زاهرة ،كما كانت من قبل عندما استوطنها الأندلسيون [1]، بينما ذكرها الجنرال ليون ديديي نقلا عن ديغو سواريس الاسباني، بأنها كانت عبارة عن قرية صغيرة بها 800 نسمة سنة 1600م،وعمل الاسبان على تنصيرها ،ولم يكن بها أي مسجد، بل كان بها 05كنائس و03 أديرة وصومعتان، و03صوامع على الطريق المؤدي للمرسى الكبير، اضافة الى مستشفى [2].

واكتسب الباي لقب الكبير، من الداي حسان اعترافا له بفضله على بايلك الغرب، وصدق جهاده .

وذكرت بعض المصادر إن الداي حسان داي الجزائر، استقبل الباي محمد بن عثمان وقلده الريشة الذهبية وقال له :"أوكلك هذه المدينة الثمينة ،وذلك لما أظهرته من شجاعة ونصرة للإسلام، واني فد عينت ابنك عثمان خليفة لك على بايلك الغرب وابنك محمد قائدا على مدينة فليتة ".

وعند عودة الباي محمد بن عثمان الكبير من مدينة الجزائر، تم دس السم له من طرف الداي حسان في منطقة عين الربط ،نظرا لتخوفه من شجاعته وشهرته بعد انتصاره على الاسبان بمدينة وهران .

وقد وردت سيرة هذا الباي في العديد من المصادر أبرزها كتاب الثغر الجماني في ابتسام الثغر ألوهراني لابن سحنون الراشدي، وهذا الكتاب عبارة عن قصيدة مطولة تمدح خصال الباي وتثني عليه بعد فتحه لمدينة وهران، والجدير بالذكر ان الكاتب كان من الأشخاص المقربين جدا من الباي ومن خاصته وعلى

---

[1] ـ الحسن بن محمد الوزان، **وصف إفريقيا** ،ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ،دار الغرب الاسلامي ، بيروت 1983 ص 30.

[2] Le General Léon Didier ,**Histoire d'Oran**, tome 7, Librairie L.Petit Oran 1932,p 360 .

دراية تامة بسياسته وتوجهاته،كما كان من بين أفراد الحملة على الأسبان، إضافة الى كتاب "رحلة محمد الكبير للجنوب الصحراوي الجزائري"،لأحمد بن محمد بن هطال التلمساني، والذي كان الكاتب الخاص والشخصي للباي ملما بكل التفاصيل والأسرار [1].

وخلاصة القول أن الباي مجمد بن عثمان الكبير نجح في سياسته على مختلف الأصعدة في إدارة بايلك الغرب –على الرغم من اتساعه – بحكمة وحنكة نادرة قلما تتوفر في عدد كبير من الحكام العثمانيين الذين تداولوا على حكم بلاد الجزائر منذ مطلع القرن 16م أي منذ 1518 م الى مطلع القرن 19م، عند سقوط مدينة معسكر في 06 ديسمبر 1835ونهاية الحكم العثماني بالجزائر وهذا نظرا للعديد من الخصال الحميدة التي تميز بها والتي يمكن إجمالها فيما يلي :

–1– حسن معاملته للرعية أكسبه ثقة السكان على اختلاف مشاربهم ،مما أدى بهم إلى إبداء فروض الولاء والطاعة له على الدوام .

–2– الورع والتقوى أللتين تمتع بهما واهتمامه الكبير ببناء المدارس والمعاهد والزوايا وتبجيله لحملة العلم وحفظة القران الكريم، نظرا لمكانتهم الرفيعة بين الأهالي ،أكسبته احتراما كبيرا من طرف السكان خاصة اذا علمنا ان البعد الروحي لدى الجزائريين يأتي على رأس اهتماماتهم المختلفة .

–3– قرب الباي من الرعية من خلال الاهتمام بانشغالاتهم ومشاكلهم اليومية، تواضعه مع مختلف طبقات المجتمع، زادت من ثقتهم به .

–4– كرم الباي المتزايد في الإنفاق على مجالات وسبل الخير، أبدت وأظهرت زهده وتعففه في البحث و الحرص على المناصب الرفيعة .

–5– حرصه الشديد في محاربة العدو الاسباني ،أظهرا خلاص هذا الباي في استرجاع كل شبر محتل الى الوطن الأم "بلاد الجزائر " .

---

1 - أحمد بن محمد بن هطال التلمساني ،**رحلة محمد الكبير الى الجنوب الصحراوي الجزائري**، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم ،دار عالم الكتب القاهرة ،1969 ص 16 .

-6- العمل على إخماد الفتن وبؤر التمرد والعصيان ضد سيادة الدولة خاصة في الجنوب الجزائري، وتأديب القبائل الرافضة لمنح الضرائب والزكاة لبيت المال، كشف عن نية صادقة في التفاني خدمة لهذه البلاد وأهلها.

-7- التسامح والمرونة في المعتقد من خلال وجود المذهب الرسمي للدولة، ممثلا في المذهب الحنفي والقاضي الحنفي، والمذهب المالكي للسكان والإفتاء به أيضا، أظهر معاملة حسنة للرعية وتقدير كبير لها .

-8- تجلي العامل الديني والبعد الروحي من خلال قدوته بالرسول عليه الصلاة والسلام بمبادرته في بناء المسجد ،بعد هجرته من مكة الى المدينة، حيث كان أول ما قام به الباي محمد بن عثمان الكبير هو بناء المسجد شكرا لله على نعمة فتح مدينة وهران .

**المصادر والمراجع العربية :**

1 – أحمد بن هطال التلمساني، **رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي الجزائري** تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم ،عالم الكتب ،القاهرة، 1969 .

2 – ابن سحنون الراشدي ، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني** ..... تحقيق محمد بن عبد الكريم، مطبعة البعث قسنطية 1973.

3- أحمد توفيق المدني، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1979.

4 – الحسن بن محمد الوزان،**وصف إفريقيا** ،ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ،دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983

5 – محمد أبو راس الناصري، **القصص المغرب والخبر المعرب عن حال المغرب بما وقع في الأندلس وثغور المغرب** ،مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائر ،تحت رقم 3182ص 131

6- يحي بوعزيز، **المراسلات الجزائرية الاسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد 1798/1780**، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1993 .

## المصادر و المراجع الأجنبية :

7 – Désfontaines et Peysonnel , **voyage dans les régences de Tunis et d'Alger**, 2T, paris 1838.

8- De Grammont- (H.D) ; **histoire d'Alger sous la domination Turque,** paris 1887.

9-. Esterhazy Walsin : **De la domination turque dans l'ancienne Régence d'Alger**, librairie de Charles Gosselin, Paris 1840.

10 - Henri Garrot ;**Histoire générale de l'Algerie**,Imprimerie P.Crescenze, Alger 1910.

11 - Henri Léon fey :**histoire d' Oran avant pendant et après la Domination espagnole**, paris 1859.

12- Le General Léon Didier ,**Histoire d'Oran**, tome 7, Librairie L.Petit Oran 1932

13 - Léon Gilbert : **L'Algérie ancienne et moderne** , paris 1853.